قهوة ستات

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر ، إعداد إدارة الشئون الفنية

حسين ، يوسف محمد

قوة ستات ، يوسف محمد حسين، - القاهرة : دار المصرية السودانية الإمارتية للنشر والتوزيع ، ١٤٤٢ / ١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ / ٢٠٢٢ م

ص ٨٠ – ١٤ × ٢١ سم

رقم الإيداع : 8572

ترقيم : 978 -977- 6736 - 70 -2

الناشر

دار المصرية السودانية الإمارتية

٠١٢٨٩٠٢٤٠٥٥

mahaelmukdad@gmail.com

إعداد وتنسيق

يوسف محمد حسين

٠١١٤٨٣٩٧٣٧٦

youssef.omar6628@gmail.com

تحذير

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي محفوظة للمؤلف و لا يجوز إعادة طبع كل أو جزء من الكتاب أو خزنه في أي نظام مخزن للمعلومات واسترجاعها أو نقله على أي هيئة أو بأية وسيلة سواء كانت الكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية أو استنساخا أو تسجيلا أو غيرها إلا بإذن كتابي من المؤلف.

يوسف محمد حسين

قهوة ستات

مجموعة قصصية

إلى :

كل حواء مرت بعقبات جِسام في سِفر العمر لتأدية دورها :

أُم .. أُخت .. زوجة ..

ابنة .. صديقة

يوسف محمد حسين

الفصلة الأولى

حلم الولد

حلم الولد

[١]

حلم الولد

أخذ خُلدها يسترجع كَم من زيارة قامت بهـــا ! وكم من جهد بذلته طافت من خلاله مشارق البلاد ومغاربها .. شمالها وجنوبهـــا.. وحلمهـــا يُزايـــل خُلدها فتبذل كل ما تستطيع من نذور وهبـــات .. عطايا لأصحاب الكرامات..

في طريقها لرحلة جديدة قـــد بَـــدتْ لهـــا أنهـــا الأخيرة: إما نجاح يعقبه حياة أو فشل يعقبه موت.

اتخذت طريقا سارت فيه ؛ لتصل إلـــى قبلتهـــا المرجوّة " **الشرفا** ".. وقد أخذت تشعر بأن الأرض أسفل قدميها- المنتعلين حذاءً كاد أن يُبلَى – رخوة تغوص فيها .. تخشى أن يســـمعها الأخـــرون أو يلتفتوا لخطواتها ..أو أنها تعكر صمت المكان.

فشرعت – بقلق– تلملم ظلها من أشعة ترسلها مصابيح الشوارع .. تدير جسدها لتستند بظهرها لحائط من الطوب اللبني .. تحسست بابا خشبيا ضخما يعلوها أضعاف طولها .. ثم أخذت تتقرّه بعد أن جمعت خوفها لتكنزه بداخلها ..

اهتزّ الباب الضخم؛ لترى من خلاله زوجًا من العيون المتسائلة : " مَنْ بالباب ؟! ".. وقد ارتسمت على وجهها بسمة باهتة يخالطها شعور بخوف متزايد: حينما وقعت عيناها على ظل جسد ضخم وقد انطبع على الباب خياله، وحينما وقعت على مسامعها أصوات متتابعة خشنة لامرأة ، وهي تقول : **وصلت الزبونة ..**

❖❖❖

صارت عيناها طوّافة بين جنبات البيت وأخذت تحصي ما بداخله : موقدٌ من فحمٍ علت ناره في البيت المظلم فصار كضوء القمر في ظلام كبد السماء ينثر أشعته بين جنبات الأرض.

وذلك حصير قديم فرقت بين أطرافها مسافات تهالكت فيها خيوطه، وتلك نرجيلة – شيشة – وهذا وعاء للغسيل –طشت– وهذا الحائط الذي بَلَى طلاؤه .. يتوسطه صورة كبيرة .. إنه:

" الشيخ الهاشمي "

بثت عيونه الواسعة خوفا بداخلها .. يقف مائلا للأمام وكأنه ينظر لها ويعلم ما سبب زيارتها؟! وما الذي تُقبل عليه أو ما الذي انتوت أن تفعله؟!

تخيّلته يجوب المكان بعمته الخضراء أو بيضاء أو بغير عِمة .. مفتوحة عباءته .. تخلفه ستارة تتلون بين اللون الأخضر أو الأحمر .. كما يتلون هو بالصورة التي يبغيها .. يطوف الأرض ببساطه السحري الطائر في لمحة بصر من موضعه لزيارات بالأراضي المقدسة: أم القرى .. قدسنا ثم يعاود موضعه بعد الرحلة اللمحية.

إنه صانع من أحاديث البشر طربا.. أو يجعل منها نشوة .. أو يبدلها قلقلا واضطرابا يصاحبها خوف وخشية .. إنه يعلم البواطن .. يكشف المستور .. ويحدد المشكلات .. يزيل العقبات ويلقي بالحلول لمن يرضى عنه ..

❖❖❖

أخذت تتمنى أن يكون لها عونا ومُسانِدا .. يخفيها عن الجميع .. عن الذين يتساءلون .. عن اللائمين .. عن المتدخلين في حياة الآخرين.. عن الذين يبثون أنوفهم فيما لا يعنون.

تعلقت نظراتها الشاخصة بعيونه تراه قائما .. ينفذ بداخلها .. يمازجها .. يهامسها.. يحادثها..يحاورها..يُبدِي مساندتها وقد أحسّ منها الحاجة لسند وعون يزيل عنها خوفها ويحقق لها أملها وينجيها من مخاوفها ويبقيها على زواجها ويُطمئِن قلبها..

أغلقت المرأة ذات الصوت الخشن الباب..

مرّ الرجل من جوارها .. لم تشعر به – فهي في غيابات عيون الشيخ وحواراته – لم تسمع صوته يناديها فقام الرجل بهزها لتلتفت له ..

أخذ يسلم وجهه إلى الطريق .. يحمل على كتفه فأسًا .. مُنحنِي الظهر.. يرتدي سروالا طويلا ظهرت عليه العديد من البقع السوداء .. وصديري يعلو فانلة ذات كُمٍّ طويل ..يسير غير عابئ بمن خلفه .. يداه تمتد إلى فمه ثم تهبط ليترك ذلك الفم سُحبا كثيفة من دخان تصل إلى تلك المرأة .. تستنشقه .. يواليها نوبات من سُعال ..

❖❖❖

الصمت يسود المكان .. الليل ينازعه ضوء مصباح بهتان يكشف عورة بيوتٍ متهالكةٍ .. وطوارق الليل كلاب وقطط تجوب أسطح المكان..

يزداد خوفها .. تسمع سُعال الرجل وبصقته التي تمخضت عن كحته ترطتم بالأرض .. ثم ينـــادي على الغلام النائم خلف مقام الشيخ .. فيجيبه ذلـــك الغلام بصوت عصبي : " أنا ؟!"

❖❖❖

يرفع الغلام يديه ليفرك بهما عينيه ثم أخذ يحكّ ظهره بأظافره التي اتخذت اللون الأسود.. يحاول أن يستوعب أوامر الرجل : " أقبلْ هنا واصطحب معك الكُرِيك ".

أخذ الغلام يدخل المقام ثم يخرج .. يـــدخل ثـــم يخرج .. تكرار للدخول والخروج مصاحبا لصوت حديد يتخبط ..

أقبل الغلام ليصل إلى الرجل حاملا معه مـــن أدوات حفر .. والرجل يخرج السيجارة .. قبل أن تنتهي يعقبها بأخرى .. ويبدأ في صـــوته يجـــوب المكان بعصبية قائلا:

" زوجتي لم تيأس ..أخذت تلحّ عليّ .. موضوع الإنجاب .. فبالأمس قد قالت لي :

إن هناك طبيبا جاء من الخارج .. على الرغم من كوني محاولا إقناعها أنه حكم الله .. ولكنها تركب رأسها أنني أصحبها إلى ذلك الطبيب "

أخذت تطرق لقول الرجل..حينما أراد الغلام أن يخفف عنه بكلمة بارة تتسلل من فم الرجل كلمات ملئية بحزن واستسلام: الله لم يرد ولن نعترض.

❖❖❖

يصمت الرجل .. ويمدّ الليل يده فيبسط بها ظلاما يصاحبه صمتٌ إلا من بعض نبيح كلب أو عويل ذئب و بعض من حفيف الأرجل في الطريق المظلم المؤدي إلى المقابر..

وبعيون الموتى ترى امرأتنا التراب الناعم يلامس قدميها .. يداها تلامس القبور .. تلملم ثوبها يزداد شعورها بالخوف حينما رأت الرجل يتوقف

ثم يميل بعوده للأمام مصاحبا فأسه ليسحب التراب يساعده في ذلك الغلام .

❖❖❖

تَرى المرأة أنها أقبلت على نهاية المطـــاف .. سُحبٌ من خوف لكن كل شيء يهون .. فالوحـــدة قاتلة .. وبلا نسلٍ ينقطع ذكر الإنســـان .. وبـــلا ونيس ينهك الجسدَ الضعفُ ..

عندئذ يندس إلى ذكرياتها زوجها يوم زفافهمـــا ليقول : أنها ستكون ليلة مباركة .. وســـيرزقنا الله الولد الصالح ..

صوت زوجها يصدح في أُذنيها ويصاحبه فـــي خيالها ما بذلته وقدمته من أجل الولد .. لم يتبـــق غير ذلك الشيء الذي دفعها إلى رجفة قوية مـــع صوت الرجل الذي يطلق بسملته قائلا :

بسم الله الرحمن الرحيم ..

أخذ يضم ذلك الجسد الراقد تحت الثرى ليرفعه إلا إنه قد تكسر وتناثرت أجزاؤه.. فأخذ الغلام يحفر من حول الجثة ثم يلملم تلك العظام التي تناثرت .

فيما كان قد احتوى امرأتنا رعبٌ قد حول وجهها إلى قطعة زرقاء .. تشعر وحدةً جعلتها تتسمر مكانها ..

❖❖❖

الرجل يهبط للحفرة يتحسس قاعها..ينظفه من الحصى..يساويه..ينام داخل الحفرة.. إنه قد اطمأن كونها نظيفة ناعمة فأخذ يتلمس الخروج منها ..

أخذت تنظر وقد ملأ الرعب نفسها .. شيء من المؤكد لا يمكن وصفه .. حاولت أن تصبر نفسها وتتجلد بحجة :

كثير من النساء من المؤكد فعلن ما أفعله

ازداد رعبها .. ازدادت رجفتها حينما أخذ الرجل يشير إليها ..

❖❖❖

وبيدين تملكت الرعشة منهما أخذت تسحب أطراف ثوبها فيكشف عن الجزء الأكبر من جسدها الأبيض الذي كاد أن يُضيء ليل المقابر ثم خطت خطوتها الأولَى.. كلعبة متحركة بيد طفلٍ لا تدري إن كانت هي أم لا.. ترتعد ساقاها .. تلامس كومة التراب .. وبخشية العروس يوم زفافها تخلع حذاءها.. وقد ارتسمت على الوجه ابتسامة باهتة.

ببطء شديد جلست.. بمؤخرتها شبه العارية لامست باطن الحفرة .. قفزت .. أحست .. شعرت بفزع .. برعب .. بجزع .. حاولت مرة أخرى الجلوس ثم شرعت تمدد جسدها داخل الحفرة .. أغمضت عينيها وغابت عن الوعي ..

أخذ الرجل يجمع التراب.. ينثره فـوق الجسـد الممدد ..

يلتصق التراب بالجسم المحموم الذي سال منـه العرق فيطفيء منه ما كان مضيئا ..

انتهى الرجل فأخذ يفرك كفيه علـى الجسـد .. فأخذ كلا الكفين يصطدمان بذلك الصدر مرات عدة ثم تحسس الصديري .. سحب علبـة السـجائر .. وخلف أحد المقابر بدأ يدخن سجارته بصـمت .. والغلام يشرع – في همسٍ– سردَ الحكايات.. سر مقام الشيخ ..

الراقدة تحت الثرى تيقظها من غفلتهـا رعشـة قوية تهتز به ذرات التراب .. تكشف عن جزء من هنا وهناك من جسدها ..

يظهر صدرها الذي أخذ يعلو ويهبط دقات قلب متسارعة .. يتبعها صرخة جلبت معهـا صـمت الولد الراوي لحكايات الشيخ ودفعت الرجل الضخم

أن يلقي بسجارته ودفعت زوجته إلى أن تسارع لتلقي على ذلك الجسد العاري عباءة خضراء تستره من العيون الراصدة ثم مالت عليها لتهمس لها : مبارك لك سيكون ولدا بمشيئة الله.

❖❖❖

قهوة ستات

الفصلة الثانية

قهوة ستات

[٢]

قهوة ستات

إنه صوتُ رنينٍ مُعتادٍ كانت قد ألِفَته منذ زمـــنٍ غير قريب شرع في تصاعده.

سرعان ما امتدت يُمنَاها لتغلق مصدر الصوت الذي سعدت به، على غير عادة الآخـــرين حيـــث ينزعجون منه إلا إياها. فها هو صوت المُنبه يعلن عن تمام التاسعة ليحثّها على الاستيقاظ وهـــو مـــا سيربط ماضيها بحاضـــرها ومســـتقبلها،إنه يـــوم عُرسِ.. يوم سَعدٍ يتحقق فيه حلمها.. يتجسد كأمرٍ واقعٍ ملموسٍ.

أخذت تطيح بالغطاء والذي التصـــق بســـاقيها.. فأخذ يحبو ثم ينزلق من بينهما نحو الهاوية لتستقبله أرضية حجرتها.

❖❖❖

تميل بجذعها نحو تلك الهاوية؛ لتلتقط الغطاء تطويه .. تعيده لسريرها ثم دلفت نحو مرآتها ومررت أصابعها بين خصلات شعرها وكأنها ريح لطيفة تداعب أوراق شجر خُضر.

سلبت عينيها في المرآة صورةُ برواز قد حمل بين أُطره ورقةً طُرحت بها بين دفاتِ ماضٍ جمع بين عملٍ ومشقةٍ وبين دراسةٍ وعلمٍ وتحصيلٍ.. عملٌ من أجل أن تنال دراسةَ تُحررها من قيد الرجل الذي نالته في هيئة أبيها؛ تسلُط ..تجبُّر قسوة..تحكُّم في امرأة أوشكت أن تكون أَمةً تحولت حياتها لحياة لُعَبةٍ صناعيةٍ.. تلك الورقة التي شهدت على تخرجها في كلية الحقوق.

❖❖❖

تعلن الساعة العاشرة .. لتستفيق من ذكراها وتدرك اقتراب موعدها مع القدر .

سرعان ما ارتدت ملابسها ثم انطلقت لتطـــوي درجات سلم منزلها حتى وصلت المخـــرج لتجـــدَ عمالا في انتظارها ، تقدَّمَ أحدهم :

- لقد جئنا في موعدنا .. وها نحن في انتظار أوامرك .. بِمَ نبدأ عملنا ؟! هل لنا أن نبـــدأ باقتتلاع الشجرة أمام المحل؟!

- لا . اتركوا الشجرة كما هي؛ فهي تعطينـــا مشهدا جميلا .. ورئةً تنقي الهواء الفاسد من تلك (القهوة) المقابلة .. عليكم البداية برفع اللافتة فوق المحل.

هنا امتدت يُسراها لتستند بهـــا علـــى جـــذع الشجرة ؛ ولتضع عينيها ترقب بهما اللافتة وهـــي تُعلق أعلى باب المحل الذي يُعدُّ من أجل الافتتـــاح افتتاح حلمها.

❖❖❖

يرفع العُمال اليافطة لتستقر فوق باب المحـــل، وقد كُتب عليها :

" **قهوة ستات** "

نعم كما قرأنا عنوانها فلِمَ لا يكون للستات قهوة كما للرجال ؟! ولِمَ لا تكون للمرأة حرية التعبيـــر عن رأيها والتفريغ عن مكبوتاتها وضغوط يومهـــا بالجلوس على المقهى؟!

لِم لا يكون لهن مكانا تلتقين به بعيدا عـــن جـــوّ الرجل ، بعيدا عن سيطرة أب أو تحكـــم زوج أو قسوة أخ .. تسترحن من عمل .. تقابلن بعضـــهن البعض .. تحكي كل مـــنهن مصـــاعب حيـــاتهن لبعضهن البعض في أمن وأمان ؟!

لِم لا يكون لهن مستقرّا يبدعن بـــه . يكتـــبن .. يفكرن بعيدا عن مشاغل الحياة ...

❖❖❖

تلك أطرحات كانت تدور في ذهنها وكوّنتها عبر مسيرة حياتها .. جاهدةً في تحيق ذلك الحلم ...

كوّنتها حينما كانت تراها في الدخول والخـــروج من منزلها في "القهوة المقابلة "..

وحينما كانت تجد من أمها سجينة البيت والزوج لا تفريج عن همومها وتبعاتها غير عَبرات تســيل من بين جفنيها المغلقين لتفضح ما مدى ما تَأسَــاه وتُعانيه.

كوّنتها حينما كانت تسمع صُراخ جارتها طلبًــا للنجدة من ضرباتٍ تتوالى على جسدها لا تعــرف لها طريقًا محددًا.

كوّنتها عند سماعها من آخر يُطلِقُ صواريخا من تهديدات لأخته التي قد تأخرت لظروف عملهــا أو ازدحام المواصلات أو طول درسها...

❖❖❖

كوّنتها حينما تفيض بسيلٍ من الآهـــات جـــارةٌ مجاورةٌ لها للحظات من ضغوطات حياتها.

كوّنتها حينما ترى ذلك الرجل بلا عملٍ يستولى على مرتب زوجته الشهري وهو ما تنفق به على الأبناء؛ ليلبي لنفسه ما تريد من تناول المخـــدرات التي ضيّعته...

كوّنتها حينما رأت من صديقتها الوفيـــة أخـــذت تنفق حياتها من أجل رعاية زوج قد أصابه الشلل جراء جلطة دماغية ...

والآن أوشك الحلم أن يكون حقيقـــةً .. أوشـــك الأمل أن يكون متسجدا .. أوشك الخيال أن يكون ملموسًا ..ها هي اليافطة تُعلق وما هي إلا سويعات ويتم افتتاح حلمها " قهوة ستات " تستقبل زبائنهـــا من جنس حواء .

❖❖❖

وهنا تستفيق من تلاطم أفكارها على صوت أحد العُمال :

- لقد انتهينا من تعليق اليافطة . فَبِمَ تأمرين ؟!
- لتشرعوا في إعداد المقهى من الداخل ..
- وهو ينظر لها ثم للافتة .. محدثا نفسه في دهشة وتعجب : " قهوة ستات ؟! " ثم ينظر لها قائلا : حاضر. سنشرع في ذلك الآن!.

❖❖❖

عادت الحالمة إلى شرودها متسائلةَ :

ماذا يمكن أن أواجه جراء ذلك الفعل ؟! وهل أنا من القوة لمواجهة ما قد أُلاقي ؟!

لِمَ لا أعدُّ نفسي لما قد ألاقيه خاصة بعد ما سمعت من سخريات الرجال عندما علموا بما أفعل؟!.. أو من هؤلاء الذين يقطنون في المقهى المقابل ؟! أو من هؤلاء الرجال السجّانين للمرأة؟!

وكيف الحال إذا ما تعرضت حواء للمضـــايقات من قاطني الشارع ؟!

ما أشّد ما أقلق منه من توعدات تكاد أن تطـــيح بحلمي ! وما أقبح هؤلاء الذين أعطـــوا لأنفســـهم الحق في التحكم بمصائر النساء وقد نســـوا أنهـــن خلقن أحرارًا .. وأنهن صـــاحبات فكـــر ورأي ! ولسن مصب متعة أو مصدر لذة .

وما أسوأ هؤلاء الذين اجتمعوا من أجل تـــدمير حلمي حينما توعدوا بإغلاق المكان بحجة " إننـــي سأفسد عليهم نساءهم "!

وما أشد قسوة هؤلاء وقد طالت عروتهم لحاهم حينما اجتمعوا ليفتوا أن مقاهي حواء لا تجوز لِمَا يترتب عليها من فتنةٍ وفسادٍ!

وما أبشع جالسي مقهى الرجال حينما يطلقـــون صواريخ من الأقوال الساخرة .. أو تلك الأقـــوال التي ينالون من خلالها سمعتي وعِرضي !!!

دقت ساعة الحقيقة .. شرعت الأضواء مختلفة الألوان في إنارة المكان .. وبدأت أصوات (DJ) تعلو إذانًا بافتتاح المقهى.

إنها تقف في انتظار المدعوات اللاتي جئن مساندة لها.

الآن ماذا عليّ أن أفعل ؟! أ كُلُّ شئ جاهز؟!

نعم.. نعم .. العاملات في ثوب المقهى الموحد والذي اتخذ اللون الأبيض وقد زُين بشريط أحمر علاه من عند العنق وشاح من اللون الأحمر طبع عليه كذلك شعار واسم المقهى والذي طُبع عليها اسم المقهى .. ورُسم شعار فنجان القهوة ...

والمناضد قد أُعدت وجهزت بمفارش مزركشة وقد توسطها رسمة الفنجان الذي يحيطه اسم المقهى بشكلٍ معقوفٍ ..

تحيط المناضدَ مقاعدُ من الجلد المُغطِي للخشب المقوى ذي اللون البُني ، وقد وُضع عليها أوانٍ من الصيني الأبيض اللامع والتي تحـــوي الســـكر .. وتلك أخرى تحوي الكريمة البيضاء لمن يفضـــل الشاي أو القهوة محلاة بها .. وأكواب مياه زجاجية فارغة ..

نعم .. نعم كل شيء جاهز ومعدّ .. نعم .. نعم كلُّ شيء مُهيأ لاستقبال زوار المكان .. ما تبقى إلا أن أشْتَمّ هواء الشارع تهيئة للحظة الحقيقة.

❖❖❖

دلفت من محلها نحو الباب وبدأت تشهق شهيقا عميقا تملأُ بها رئتيها وكأن الهواء زجاجات مـــن مياه غازية باردة قد أزاحت ما بداخلها من أمواج متلاطمة وأفكار متضاربة ومتحاربة لتضع السكينة والهدوء

تقدّمت قدماها بضع خطوات نحو الشارع ثم استدارت لتلقي بنظرها على تلك اليافطة وتقرأها بصوت تسمعه أُذناها : " **قهوة ستات** "

ثم أخذت تكررها .. تعيدها .. وكأن في تكرارها مصدرا لسعادتها .. وكأن ما مرت به قساوات الزمن قد أزحت..

انطلقت نحو الشجرة لتضع يدها على جذعها وتقول : " ها هو الحلم قد تجسد .. قهوة ستات"

في تلك اللحظة تسمع ضجيجا من اتجاهات عدة وأصواتا متداخلة بعصف بلحاظت الانتعاش والراحة التي نالتها ..

زمرة من رجال يسيرون نحوها.. تمتلئ عيونهم كراهية .. ووجوهم يعلوها امتعاضٌ وغضبة ..

إلامَ يذهب هؤلاء ؟! ولِمَ تعلوهم تلك الغضبة ؟! وماذا يحملون في أيديهم ؟! ما هذه العصوات التي

يقبضون عليها بأيدهم وكأنها أرادت أن تفرّ منهم فرار الإنسان من المجذوم ؟! هل هم ذاهبون لمعركة مع عدوٍ أصابهم بالاحتلال ؟! هل هم ثائرون على عتريس الذي قطع عنهم الهاويس واغتصب منهم أراضيهم ؟! أم إنهم ثائرون على قراقوش الذي أشاع بينهم المذلة والهوان؟! ماذا يريدون .. ماذا يبغون ؟!

مجموعات من الأسئلة المتلاطمة كأمواج البحر لا تهدأ ولا تستقر وتتابع لا شيئا يوقفها ..

وفي تلك اللحظة تستفيق من طاحونة الأسئلة على صوت زجاجة تشع ضوءًا تُلقَى على المقهَى، ثم تشعر بثقل على رأسها جراء عصا انهالت عليها جعلتها تهوى نحو الأرض وعيناها تقع على تلك الحروف من لافتتها : **قـ .. سـ .. و .. ة**

❖❖❖

الفصلة الثالثة

درس من حواء

دارس من حواء

[٣]

درسٌ من حواء

جلس الرجل يستند ظهره إلى أحد أعمدة المسجد يستمع لخطيب الجمعة والذي شرع بالقول :

نذكر جميعا الرجل الذى كان يراود ابنة عمه عن نفسها فى قصة الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة؟ قطعا سمعنا بها عشرات المرات من قبل.. لا أحصى كم من المرات توقفت مندهشا أمام هذا النموذج البشرى الذى انطفأت داخله شهوة محرمة تراكمت على مدى سنين فى لحظة واحدة وبمجرد كلمة واحدة !

كم من المرات احترق قلبه باشتهاء ابنة عمه فى الحرام؟!كم مرة راودها عن نفسها؟! الظاهر من مجموع طرق القصة أنها كانت عفيفة لا تقبل مواقعة محرمة.. تأمل إصراره على إفساد فطرتها

وهى تتمنع عنه وتصدّه فما يزيده ذلك إلا تبجحا وتصميما .

الشرع علمنا أن بعض الشرّ أهون من بعض.. الزنا كبيرة نعم، لكن الزنا بامرأة فاجرة تحترف البغاء أهون بلا شك من مراودة العفيفة المحصنة وحضها على مواقعة الفاحشة.ألمت بها ضائقة واحتاجت المال وما وجدت غير ابن عمها تستقرضه، فجمع إلى الشهوة المحرمة دناءة وخبث نفس وحيوانية مقززة لما اشترط عليها الزنا مقابل القرض .

احتقرتَه أيما احتقار؟ تُرى كم من الناس حولك تنطبق عليهم نفس هذه الأوصاف؟!..حتى إذا جلس منها كما يجلس الرجل من المرأة.. إذا كان ما مضى كله خيالات مريضة ومراودة لفظية، فالوضع الآن مختلف، لا يفصله عن مواقعة الحرام غير سنتيمترات قليلة.. هو فى أوج شهوته الحرام

فعلا.. كل الظروف مهيأة.. لسان حال ابنة عمه (هيت لك).. فأى موعظة تنفع والحال ما ترى ؟

ابنة عمه رغم موافقتها له مرغمة لأجل حاجتها ــ وليس ذلك بالمبرر بلاشك ــ لكنها لم تفقد الأمل أن ينزجر عن إتمام ما عزم عليه من قبح قالت:"يا عبدالله، اتق الله،ولا تفتح الخاتم إلا بحقه".

هنا تسارع من عيني المصلي عبرات ندم وحسرة تذكّرَ فيها ما بدّل حاله وغير حياته .. تذكّرَ فيها يوم أن جلس على مقعده الدوّار خلف مكتبه في حجرة أنيقة تليق بمكانته الوظيفية والذي لم يبارحه منذ صباح الأمس..

إنه ما زال في ذهوله متى أن رأى تلك المرأة تقتحم عليه مكتبه تلقنه درسه الأول في الحياة..

فهو صاحب التجارب في التعامل مع كل ألوان البشر عبر رحلات سِني عمره .. وحين حطّ ترحاله إلى حيث أصبح مسئولا كبيرا في الدولة –

يعطي ويمنح ويهبّ ما يشاء لمَنْ يشاء .. يُعيّن مَن يرغب فيه ويعزل مَن يرغب عنه .. يُثيب من يريد ويعاقب مَن يريد– أخذ يضبط سلوكياته ويقنن علاقاته ويبرمج حياته على نحو يلائم وظيفته وعلى قدر ما تتطلبه مكانته.

يجلس على مقعده.. يراجع دفاتره ويوقع أوراقه ويفرز جدول أعماله .. لا يجيب اتصالا إلا وقد مرّ على سكرتيرته الناعمة مسبقا.. رغم ذلك ولأنه شخصية عامة مقبولة ووفق التعليمات وجد نفسه مضطرا لأن يشارك المناسبات الاجتماعية.. تلك المناسبات التي منها ما تعقدها العائلة .

فليس من اللائق أن تمرَّ مناسبة عائلية : فرح .. أعياد ..عزاء .. حفل زفاف..إلا ويشارك فيها.

وفي إحدى تلك المناسبات وعلى غير المألوف تلفت انتباهه تلك المرأة التي لها صلة قرابة معه .. ليس لجمالها ولا لحسنها فقط بل لقوتها وشخصيتها ونضرة شبابها..

فهي امرأة ذات تعليم متوسط ..عانت مِن زواجها الذي أثمر عن ثلاثة أبناء .. جردها زوجها من كل كرامة .. كانت له المطيعة والأم الشفيقة على أبنائها من أب بخل عليهم عطفا ومالا وتعليما .. يعمل مقاولا .. غازلته الثروة وحب الأموال فأخذ يسارع لينهل منها قدر المستطاع لينسى ما وجب عليه تجاه أسرته ..

دامت الزيجة عشر سنوات لم تر فيها معنى الإنسانية .. أخذت تبسط فيها يدها لأبيها مرة وأخرى لأخيها وثالثة لأختها ..

لفت انتباهه أنها تلك المرأة التي حينما تتحدث فإنها تتحدث عن منطق تلقائي وقوة حجة وإقناع وحسن بيان ..

لفت انتباهه على غير المعتاد عدم انبهارها به ولا مكانته التي يحيطها جلالة وهالة من عظمة وفخفة أينما حلّ أو ارتحل..

يشعر في داخله أن يرقّ لحالها ويحسن من شأنها بعدما جرَّها القدر إلى أن تكون مسئولة عن عائلة : ثلاثة أبناء رابعهم هي ..

فهي التي كانت تتوقع منه المبادرة بما يفرضه عليه واجب القربة .. وخاصة وهو يعلم بحالها أن يوفر لها عملا شريفا تعيل به أولادها ونفسها وتكفيها السؤال وشرّه ..

ولكنه ليس ممَّن يفعل ذلك مما دفعتها الحاجة إلى أن ترسل إليه والدها مرة وأخرى أخاها ، وأخرى والدتها ، ورابعة أختها .. وما كان منه الرد : قريبا إن شاء الله .. خير سيحدث .. إن شاء الله.

مرّت الأيام وهي على ذلك النحو حتى بدت حقيقته من تلك النظرات التي كان يتلصص بها إليها .. نظرات تنمُّ عن نوايا كم مِن مرة تعرضت لها ممّن هو على شاكلته..

وفي الوقت الذي بدأت الحياة تضغط عيلها لتسدّ حاجة أبنائها، لم تجد بُدًّا من عدم تفويت فرصة حضوره تلك المناسبة العابرة ..

شرعت تتجه نحوه أمام الجميع ؛ وبصوت فيه حدّة لم تعتدها ألقت عليه طلبها :

- هل لي أن أطلب منك طلبا؟!

التفت الجمع لها كما التفت هو ولكن كانت التفاتته لها مآرب أخرى – دارت في ذهنه ما دار، عن صلة ووصال ، عن رغبة مكبوتة قد تنطلق من سجنها – ثم شرع في القول :

- تفضلي . سلِي ما شئتِ وأنا أجيب.

- أطلب منك أن تقرضني أربعمائة وأربعين جنيها

دار في ذهنه موجات من التساؤلات وبدت على وجهه الكثير من العلامات : دهشة .. تعجب ..

حيرة ..لِمَ تلك الحدة في قولها ؟! لِم لجأت للصوت العالي؟! لِمَ كان الطلب أمام الجمع ؟! ولماذا هـذا المبلغ بالتحديد؟!

شرع ينطق ليعبر عن تلك التعجبات التي جالت في ذهنه يطرح عليها أسئلته إلا أنها بادرته :

- سأردّ المبلغ ولكن لن يكون كاملا .. سـأردّ لك الأربعين جنيها .. الأربعين جنيها فقـط ولن أردّ الباقي ..

أضاف حديثها مزيدا من التعجـب والدهشـة والحيرة ولكن كان عليه أمام الجمع – وهو ذلـك المسئول، والذي تستكبره العائلـة – أن يسـارع بإخراج محفظته المنتفخة ليعطها المال..

بسطت يدها لتأخذ المال فأخذت منه ما حددتـه وأعادت له الباقي والذي صاحبه اضطرابه وكثرة حيرته من ذلك الموقف.

وفي صباح اليوم التالي دخلت عليه سكرتيرته؛ لتخبره بوجود امرأة تدّعي أنها قريبته تبغي مقابلته.. ومن فوره يطلب منها أن تدخلها عليه.

دقات على الباب .. تدخل المرأة ..كاد دخولها أن يصعق الرجل من هول المفاجأة وتتكرر موجات متدفقة من التساؤلات وخبث الخيالات التي تراوده مرات ومرات .. فها هي مطلبه ورغبته ومبتغاه قد جاءت إليه .. جاءت في عقر داره ووكره ..وها هي رغبة الذئب تنبش داخله وتحركه لأن ينتفض من على مقعده ليمدّ له يده بالترحاب. وقبل أن ينطق لسانه بادرته بقولها :

- ها انا جئتك لأرد عليك مالك .. تلك هي الأربعون جنيها ما أستطيع أن أرده إليك.

وفي الوقت ذاته علت يداها نحو صدرها لتكشف بهما عن ثدييها .. وهي تقول :

- وهذا ما أستطيع أن أمنحك مقابل باقي مالك.

ثم أخذت تستطرد في حديثها .. وهو في ذهول:

- قالوا قديما في الأمثال : " **تَجُوعُ الحُرَّةُ وَلاَ تَأكُلُ بِثَدْيَيْهَا**"، وأنا أقول بأنني لواضطررت لسدّ حاجات أبنائي لفعلت أي شيءٍ .. كما قالوا : " **الأقربون أولى بالمعروف** " .. على الأقل أنت تعرف ما أفعله .. وما لا أفعله فلا تأتني يوما بحميتك أو ثأرًا لكرامتك وتقوم بسفك دمي لو فعلت مع رجل آخر.

أخذت تستدير بوجهها نحو الباب لتخرج من وكر الذئب وقد سالت من عينيها ما يُملأ به وادٍ.

أما هو انكبّ على مقعده وأخذ يتمنى لو أن الأرض قد ابتلعته قبل أن يمرّ بهذا الدرس .

استفاق من تذكّراته على إقامة الصلاة فأسرع يعيد وضوءه ويستغفر ليؤدي صلاته.

❖❖❖

الفصل الرابع

حكاية أرملة

حكاية أرملة

[٤]

حكاية أرملة

كما لو كان تقليدًا قد اعتادته عَبر سِني عمرها ومسيرة حياتها أن تجلسَ خلف تلك النافذة ــ التي تعلو الشارع بستة أمتار والذي يساوي قطار العمر من الحياة، وفي المنزل الذي يتملك ناصيتين من شارعَين النشاط والحركة يسودهما ــ في وقت الشفق؛ لتحتسي (شاي المغارب) وتطلَّ على الحياة من خلال نافذتها كما لو كانت شاشة تلفاز تعرض لها أخبار الكون.

نعم .. فهي حينًا تتطلع لرؤية السماء والشمس الحمراء قد أحاطتها السحب الرمادية كما لو كانت عين تشرع في البكاء.. تودّع النهار ليحلّ الليل والظلام .

وحيناً تغوص مع رشفات الشاي في أنغام وكلمات الشعراء وصوت أم كلثوم التي تصدح :

ودارت الأيام ومرّت الأيام ...

أو حيناً تشبُّ برأسها لترى ما يدور بين الناس من أحداث أو تستمع إلى حواراتهم..

تأخذ حيناً تتأمل في ذلك القفص الذي يعيش خلف أسلاكه زوجٌ من العصافير لا يملكان من الحياة غير صوتٍ هزيلٍ يُعَبّران به عن قيودهما وفقدان حريتهما أو التمتع بالطبيعة..

فهي المرأة في معيشتها التي قد نالت منها الوحدة كل منال؛ حيث امتزجت روحها بالشمس التي تشرع في الغروب لتودّع دنياها ..

وهي ــ مرّت الأيام ــ كلمات أم كثوم تعكس السنوات التي تسللت من بين يديها لتبلغ بها العقد الستين..

وهي تلك العصافير حيث تنتظر حريتها من قفص الأرض إلى مسكنها الأخير.

لا أنيس غير صوت العصافير وحكايات المشاهد السينمائية اليومية .. فقد فقدت ونيسها منذ نصف عقودها الستة.

لا خليل .. لا سمير .. ولا ابن رحم يسأل عن رحمه ــ على غير ما نحن فيه الآن.

مضت الساعات وقد عادت لتجلس جلستها مع موعد إذاعة أم كلثوم ثانيةً لتسمع هذه المرة : بعيد عنك حياتي عذاب .. ولتطلَّ مرةً أخرى على أحداث الحياة من خلال الناصية.

وفي حدود الساعة العاشرة مساءً ، وعلى بعد عشرة أمتار من جلستها ــ وقد خلا الشارعان من طوارقهما ، وخفّت الحركة عنهما وشاعت فيهما الهدوء والسكون ــ تلمح عيناها ثلاثة رجال

يخرجون من المنزل المقابل لعينيها ، ولم تتمكن من رؤية وجوههم ، ثم رأتهم يركبون سيارة كانت تنتظرهم عند ملتقى الشارعين ثم انطلقوا .

تعلم المرأة أن المنزل المقابل لمنزلها لا يسكنه إلا أرملة ــ تماثلها وحدتها ــ قد توفى زوجها منذ ثلاثة أعوام . تجاوزت تلك المرأة الستين عامًا تماما كما هي .

كانت تلك الأرملة قليلاً ما تغادر منزلها ، ثم شرعت بالقيام من خلف نافذتها إلى مطبخها وظل منظر الرجال الثلاث يداعب خاطرها، والذي كلما مرت ثانية يتذكر منظر مغادرة الرجال يزيدها توترا .

فتلك الأرملة ، لم تحدثها يوماً عن عائلتها ــ حديث النافذة أو الهاتف ــ وندر منها رؤيتها من قبل ، أن تستقبل ضيوفاً.

باتت المرأة ليلتها شاطرها وحدتها كما يشاطرها التفكير في المشهد السينمائي من خلال النافذة .

وفي الصباح نهضت المرأة ثم شرعت تخرج إلى السوق؛ لتجلب احتياجاتها .

عندما فتحت باب المنزل أثار انتباهها وجود تلك السيارة مرة أخرى في نفس موضعها من الناصية بالأمس.

وقفت بضع ثوان خلف باب البيت ، ثم أخذت ــ سريعا ــ تبحث عن ورقة وقلم في حقيبتها إلى أنْ وجدتهما وأسرعت بإخراجهما ثم شرعت تتطلع إلى لوحة تلك السيارة؛ لتدوّن أرقامها.

وأثناء سيرها ــ وكأن القدر يرتب لها ــ ترى صديقاً لأنيسهما الفقيدين ، والذي كان يعمل ضابطاً في الشرطة إلا أنه قد أحيل عن العمل على المعاش منذ أعوام ثلاثة ــ وكان على عجلٍ من

أمره ــ ، فرأت المرأة أنها فرصة جيدة لتتحدث معه عمّا رأته بالأمس واليوم .

همّت تناديه : " أيمن باشا .. أيمن باشا ..".

التفت الرجل إلى صوت المنادِي .. إنها هي زوجة المرحوم " فتحي " .. نعم هي .. مازالت أتذكره وأتذكر كرم تلك المرأة ..

أقبل الرجل نحوها فبادرته بقولها :

- أريد التحدث معك في أمر هام يشغل بالي منذ الأمس وحتى الآن ، وكأنّ الله قدّرَ أن ألاقيك بعد طوال تلك السنوات .
- هل تعذريني أنا علَى عجلٍ الآن (ثم مدّ يده ليستخرج من جيبه كارتا يحمل أرقامه) اتصلي بي وأنا تحت أمرك.
- الأمر لا يحتمل التأجيل سأطلعك عليه في دقيقة ثم شرعت تخبره بما رآته بالأمس .

وحيرتها إذ لم يسبق أنها رأت تلك الأرملة ، تستقبل ضيوفاً خاصة من رجال .

فظهرت على الرجل علامات الدهشة والعجب ثم أخذ ينجذب للحديث ، ثم تستطرد المرأة:

- إنّ ما زاد من انشغالي أني رأيت تلك السيارة بعينها ، واقفة أمام منزل الأرملة في ذلك الصباح، وقد قمت بتسجيل أرقام السيارة من على لوحتها... إنّ كلّ ما أخشاه أن تكون تلك الأرملة قد أصابها مكروه وخاصة لم أعتد عدم لقائها في الصباح حيث نتسوق معا... فلتأخذ تلك الأرقام لتسأل عنتلك السيارة.. وساعدني في أمر تلك الأرملة.

مدّ الرجل يده إلى جيبه مرة أخرى ولكن تلك المرة ليخرج الهاتف منه .. ثم أخذ يطلب رقما حتى أجاب:

- ألو .. ألو .. السلام عليكم.. سنؤجل لقاءنا اليوم لأمر هام .. السلام عيكم.

توجّه بالحديث إلى المرأة :

- أمر عجيب .. هل تستطيعين أن تصاحبيني إلى منزلها.

- بالطبع نعم ..لنرى ما أمر هؤلاء الرجال.. ونطمئن عليها.

صعد الرجل مصاحبا المرأة إلى أن وصلا إلى باب شقة الأرملة.

دقات على الباب .. تتابعها دقات أخرى .. وأخرى لكن لا مجيب .. يزداد الأمر غموضا وقلقا على المرأة .. كما يزداد على الرجل الدهشة والانجذاب للحدث .. يحاول مرة أخرى بدقات متسارعة .. تلاحقها دقات من المرأة .. لا مجيب كذلك تلك المرة.

يجذب الرجل هاتفه من جيبه مرة أخرى طالبا لرقم صديق له :

- السلام عليكم أحمد باشا .. أريد سيارة شرطة وإسعافا الآن ــ ثم أخذ يحكي له عن الأمر.

ما هي إلا نصف الساعة حتى وصلت سيارة الشرطة إلى منزل الأرملة.

صعد رجال الشرطة شقة الأرملة في فريقين أولهما من أعلى السطح من منزل مجاور وثانيهما من باب البيت حتى التقيا عند الشقة.

وجد رجال الشرطة الرجل والمرأة في انتظارهم أمام شقة الأرملة..وهنا أمر الضابط جنوده باقتحام المكان.

يتجه كل في اتجاه .. إلى أن توجه الضابط نحو ضوء خافت وكلما اقترب من المكان سمع أنينا،

من فوره دخل الضابط وأضاء المصباح ، فرأى على السرير امرأة بدأت تفقد وعيها ، وقد رُبطت إلى السرير وبيدها حبر أزرق ..

استدعى الضابط المسعفين، ونقلت المرأة إلى المستشفى وهي في حالة خطيرة.

وبعد عدة أيام استطاعت التحدث مع المحققين ، وحكت الأمر .. :

- فذكرت أن هؤلاء الرجال قاموا بالاتصال بي عدة مرات بأصوات مختلفة مهددين ومتوعدين .. إذ أنهم عرضوا أن يشتروا البيت ولكني رفضت البيع .. فأخذوا يزيدون من حدة التهديد والوعيد .. حتى فوجئت بهم بالأمس يدقون علي الباب وعندما فتحت الباب اقتحموا المكان وحاولوا إرغامي على التوقيع على وثائق أقرّ فيها ببيع المنزل.

- ثم أخذت تتال شهيقا عميقا لتواصل حديثها : قام أحدهم بربطي إلى السرير، كما قام شخص آخر يهددني بسكين حمله في يده اليسرى إن لم أوقع الوثائق.

استنتج الضابط أن ربطها في الفراش، وتركها دون طعام أو شراب ــ في مثل سنها ــ يرجع لرغبتهم في التخلص منها، ولكن الجناة يريدون أن تكون الطريقة طبيعية تبعد عنهم الشبهات.

أمر الضابط بوضع حراسة متخفية على المنزل، وبعد مرور سبعة أيام لُوحظت سيارة تشبه التي أخبرتهم بها المرأة ، تقف أمام منزل الأرملة للمرة الثالثة، ونزل منها رجلان وهما يلتفتان يميناً ويساراً ، ثم توجّها نحو المنزل.

هجم رجال الشرطة عليهما وأمسكا بهما، ثم أمسكوا من كان في السيارة .

وفي مركز الشرطة.. اعترفوا بما فعلوه ونقل ملف القضية ، إلى قسم الجنايات للتحقيق في الأمر، والتوصل إلى عقاب .

أنقذت المرأة تلك الأرملة من شر هؤلاء الرجال الثلاثة .. وهنا نظرت إلى الشارع تتطلع هذه المرة إلى مصابيح أعمدة الإنارة لتضئ المكان.. ثم ارتسمت بسمة واسعة على شفتيها .. وكأنها تقول لنفسها:

إذا كان الليل قد حلّ ونشر بظلامه المكان فقد شتت الظلامَ مصابيحُ الإنسان .. ولم أعدّ منتهية الصالحية لكبر العمر .. والآن سرت مثل تلك المصابيح.

❖❖❖

صياح الديك

الفصل السادس

صياح الديك

[٥]

صياح الديك

مع زلفة الليل الذي أخذ بغسقه يزحف على المكان .. وقد طواه تحت جناحه الظلامُ .. فاضطره إلى الاستسلام له..تحت وطأة أجنحته المعتمة.. ومع السكون الذي أخذ يتجرع من الليل ما يصبّه من كئوس العتمة ويصارع بدوره أصوات قد تنوعت نغماتها كادت أن تصرعه : صياح ديك علا قد تعوّد أن يشق صدر السكون مع آذان العشاء.. وصوت المياه التي تندفع من الصنابير تتلقفها أيادٍ جمّة .. ومع القمر عين السماء اللامعة الذي غاب عن الحضور في موعده متعللا بالحالة الجوّية السيئة والتي تُنذر بهبوب رياح تصاحبها عطايا السماء من الأمطار ..

وسط تلك الأجواء وما فرضته من كآبة . وقف الأب في شرفة منزله يقبض كفه المرتعد لفافته ؛ ليضعها بين شفتيه وهو يصارع نفسه ألا تجيب على سؤالٍ طغَى عليه : ماذا لو .... ؟!!!

في ذلك الحين تأتيه زوجته لتجاوره المكان .. أخذت رأسه تلتفت يمنة مرة ويسرة أخرى ، وكأنه يتهرب من أن يضع عينيه صوب عينيها، والتي فاجأته بسؤالها الذي صارع فيه نفسه أن تجيبه: ماذا لو ..؟! ماذا ستفعل ؟!

سالت الإجابة على لسانه :

- ماذا تقولين ..؟! ابنتنا في أحسن حال .. سيأتينا الطبيب بعد قليل .. ويؤكد ما أقول.

مرت الساعات والطبيب حضر من متجره الذي فضّل أن ينهي عمله فيه قبل زيارة زبونته نهاية عيادته التي تجاور منزلهما.

- إنها في خير حال .. قليل من الألم في المعدة وسأعطيها دواءً ليوقف عملية القيء.

تسللت عيناه إلى زوجته وعليهما علامات الفرح والتهلل ثم خرج إلى الشرفة مرة ثانية وقد تـــرك زوج ابنته لجوارها ..

تأتيه زوجته مرة أخرى وكأنها تريد ترديد نفس السؤال وهو يحاول ألا يصدق ما يحدث .. أو إنه يتهرب من حقيقة واقعة يصارع .. يجاهد .. فيها موجًا يكاد أن يغرقه .. يعاني ويقاسي من ضربات الموج الذي يحيط به من كل جانب.

- آه .. آه .. يا ابنتي .. ســـأطلب الإســـعاف ننقلها إلى المشفى هذا هو الحلّ حتى تـــدبَّ الطمأنينة داخل قلبك.

ينتصف الليل العاصف .. وقد أصابه الإربـــاك ونال منه كل منال .

أخذ يلف ويدور داخل حجرات منزلـــه وعينـــاه تشاطر الليل ظلمته كما شاطرت السماء مطرها.. ثم اتجه إلى ابنته وقد ارتسمت البسمة المصـــطنعة على وجه :

- حبيبتي .. سيمرُّ الأمر كما مرّ الكثير مـــن قبل .. وأنت خير من يتحمل .. ساعات قليلة سنعود من المشفى وأنت في أفضل حال.

تحمل ابنته سيارة الإسعاف وقـــد جانبهـــا فـــي مقعدها خلف السيارة .. تمتد يده لتزيل ما تصبب من جبينها من عَرقٍ .. ثم يحتضنها ..

- ما بال السيارة ترجع للخلف؟! ..

- بصوت عالٍ فيه حدة وعنف: ألا يجـــب أن تسرع قليلا .. أليس من الأولـــى أن ننجـــز الوقت بالتقدم للأمام لا الخلف ؟! لِمَ تبطئ ؟! أسرع أسرع.

ينظر ذلك التائه زوج ابنته للسائق ويربت بيده على كتفه وكأنه يقول له : هذا رجل عطوف طيب القلب ولكن حينما يثور فهو ثور ثائر فلا تؤاخذه.

تميل ابنته يمينا ويسارا حسب اتجاه السيارة فيمدّ يده يحتضنها .. يشعر بدقات قلبها .. يسمع أصوات أنفاسها .. تبدو عليه ملامح الغبطة والسرور :

- ما زالت حية .. الحمد لله.

يخلع معطفه ليلف به جسدها ويوجه حديثه إليها:

- أتعلمي يا ابنتي ..

ترفع ابنته عينيها الذابلتين بصعوبة تجاهه.. فيعود ويصرخ بصوت حاد :

- أسرع أيها السائق .. ما بال الطريق لاينتهي؟!

ثم يعاود النظر مرة أخرى إلى ابنته ويستطرد في قوله وكأنه بحديثه يطمئن على وجودها معه.. فقلبه الآن يشعر بما لا يريد الاعتراف به :

- أتعرفي يا بنيتي .. أتعرفي يا بوحة إن أوجاع المرض أهون بكثير من أوجاعٍ يسببها البشر.. فهم كالعقارب لدغاتهم سامة مميتة.. وكم تعرضتِ أنتِ لتلك اللدغات منهم في مراحل عمرك لكنك وقفتِ أنت لتلك اللدغات بالمرصاد وتحملتِ الكثير ولكن الله فضّلك بصبرك وإيمانك.. وما أنتِ فيه الآن ما هو إلا شيء عارض سيمرّ مرور الكرام.

"***صباح***" المسكينة تتمايل على حسب مِزاج السيارة أينما اتجهت وأينما انتقت الحفر والمطبات التي تنتشر في كل مكان ..

وفجأة شعرت ***صباح*** بنوبات الغثيان ثم ما لبث أن مالت على جانبٍ مثل وردة تذبل.

الأب ترك العنان ليديه ؛ ليميل بجسمه نحو ابنته ذات العشرينات من العمر ومثلما يفرغ قربة بطرف الحوض جعل ابنته تفرغ وجعها بحرقة داخل كيس أفرغ محتوياته.

حركة السيارة وارتجاجها جراء سقوطها في المطبات والحفر تكفلا بإفراغ الباقي من أوجاعها.

حين أفرغت ***صباح*** وجعها شعر الأب أنها أفرغت عمرها القصير للتو..

فاندفعت روحه نحو الهاوية.. وسالت من جميع أعضائه. دموعًا وبقايا خوف ثم دلفت يداه نحو عينيها الذابلتين ليمسح ما تساقطت منها من دموع.. وأخذ يلعن الزمن الذي لم يرحم ابنته أو يسعدها في رحلتها العشرينية خلاله.

وجالت في رأسه كَـم الأسـى والخـدع التـي تعرضت له ابنته من عقارب البشر ..

- " أستغفر الله العظيم " ..

هكذا قال ثم مدد جسدها على جسده ليضع رأسها على صدره .. ويمرر يديه خلال خصلات شعرها الحريري :

- هانت يا ***صباح*** أصبحنا على مقربـة مـن المشفى .. بضع دقائق ونصل بإذن الله.

كانت الأجواء التي تحيطه من كل جانـب قـد دبّرت أمرها..

فمنذ خروج الجميع من المنزل نحو المشفى وقد اتحدت عناصر الطبيعـة لتتبـئ خبـرًا .. ريـح عاصف .. رعد مدويّ .. برق لاهـب يضـرب جنبات السماء فتصرخ بالرعد وتدمع مطـرا ثـم يعاود البرق ضرباته الأنحاء.

- أتعلمي يا بنيتي لم نكن نعرف مثل تلك الأمطار الغزيرة في مثل تلك الآونة ! الأمطار رحمة من الله – عزّ وجلّ– ولكن المطر في مثل ذلك الآوان عذاب حيث إنه تغييرات مناخية من صنع البشر ، وبعض البشر مثلهم مثل العقارب .. وإذا كان أجدادنا قد صدقوا في قولهم:" يا ما تحت السواهي دواهي"

ثم صمت هنيهة وكأنه تذكّر شيئا ليقول لنفسه :

- ونحن يا صباح يبدو علينا أننا رفعنا ساهية كبرى تمثلت في ذلك الزوج الذي أهملك وحجب عنك زيارات الطبيب لغيرته وقت شهر سابق من الآن .. جعل من نفسه طبيبا يجلب دواءً ليس لدائك .. ثم جعلك سجينة حياة مليئة بوحدة قاتلة .. ألا لعنة الله على كل من جعل من نفسه سجانا لنفس حواء الكريمة.

امتدت يداه مرة تلو أخرى لتزيل ما تصبب من وجه ابنته الشاحب وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة بريئة دفعته لأن يقول :

- آآه يا صباح لو تعلمين مدى تأثير تلك الابتسامة الجميلة منذ صغرك .. كنت أعود إلى المنزل وقد أنهكني العمل والجوع ينهش أحشائي وحين أرى منك تلك الابتسامة أشعر بالراحة ويزول عني التعب والإرهاق ويذهب عني الجوع.

بعد قليل من حديثه توقف النزال والطعان بين الرعد والبرق اللاهب وبين السماء المنتحبة والسحب الباكية .. وعن قربٍ بدا لمعان لنور شاحب وهنا توقف الأب عن الحديث ليمتدَّ بصره إلى مصدر هذا النور الخافت..

- الحمد لله ها نحن قد وصلنا المشفى يا صباح.

- ابنتي تماسكِ .. قد يصبّ الطبيب لعناتــه أن أخرناكِ إلى مثل تلك الساعة ولكن لا تفكــري في ذلك سأكون منكس الرأس عندما أســتمع إلى عتاباته حتى ينقذك ابنتي .. على الــرغم أننا ضحية التاجر الطبيب الذي أجلّ زيارتــه لكِ لينهي تجارته في عيادته .. وكأنه تــدرب في طِابته على كيفية خــروج الــروح مــن البائسين أمثالنا..

يصمت الأب على صــوت اصــطدام مقدمــة السيارة بالباب الأمامي للمشفى ..

يجري الجميع ليروا رجال الإســعاف يحملــون المريضة يجاورها رجل خمسيني مكسور الخاطر منكس الرأس أنفاســه المتســارعة تعيقــه عــن الحديث.. و كأن لسانه قد خيط في فمه .. فأخــذ يشير بيده إلى ابنته..

هرول الطبيب نحو الابنة تمتد يده نحوها يتحسس نبضها .. ليكتشف ما فعله القدر بها .. فرفع يديه عنها ليتوجه بها إلى السماء ويتبعه مساعدوه..

انتفخت عين الأب وجاش بالبكاء ثم مال إلى أذنيها :

- سأغني لك أغنيتك كما كنت أغنيها :
- " يا بنت يا صباح أبوكي فلاح دخل الجنينة ملقاهش تفاح "

ثم يسمع صياح الديك ولكن تلك المرة ليؤذن المؤذن لصلاة الفجر.وليعلن حريتها من قيود الأرض.

***

الفصل السادس

فارسة التحدي

فارسة التحدي

[٦]

فارسة التحدي

تقديرا لصاحبات الإرادة - ونساء الصعيد

ينتفض جسدها فرحا حينما سمعت اسمها على منصة التكريم فتضطرب حركتها؛ عندما همّت للوصول إلى تلك المنصة.

أخذت تتساءل في قرارة نفسها عن سبب طول المسافة التي ستقطعها من مقعدها التي كانت جالسة عليه إلى منصتها التي تنتظرها حتى تنال تكريما .

يشدّ على يديها رئيس جامعتها جامعة أُسوان؛ ليسلمها شهادة تقرّ بأنها أصبحت مدرب مساعد في مجال الحاسب الآلي عن مبادرة لها تحت مسمى "نوّر لي طريقي".

وهنا تغالبها دمعات، لا تدري إن كانت دمعات سعادة أم هي دمعات حزن.

هنا تتذكر كيف أن الإرادة والإصرار يلعبان دورهما في تحقيق المعجزات وإنجاز الهدف متحلية بروح الأمل.

أخذت تقول لنفسها: " أجمل ما في الدنيا حينما يتم تكريمك بعد تعب ومجهود طويل إنها لحظات فارقة ".

تضجّ القاعة بالتصفيقات التي تأتيها إلى أذنها من كل ناحية، وينطلق الجمع لمحاولة مصافحتها . تصحبها أختها إلى حيث وسيلة انتقالها تحت ملاحقة الصحفيين والأسئلة المتلاحقة.

تركب السيارة وتمتد يد أختها لتزيل عنها تلك العبرات التي كست وجهها .. بعد أن ألقت عليها تهنئة الأخت المُحبة.

وهنا كانت أمنيتها أن ترى بأعينها ذلك المشهد المهيب .. الذي كان تتويجا لمجهوداتها . فهي بنت الصعيد التي تحدّت ظروف نشأة المرأة الصعيدية – دشنا ، محافظة قنا– ثم يمرّ شريط الذكريات

والذي حمل معه معاناتها منذ أن ولدت عام١٩٩٣ حتى بلغت من سنها الرابعة عشرة .

عانت من خلالها بمرض المياه الزرقاء .. وفي كوم امبو بعد انتقلت مع والدها لظـــروف عملـــه فقدت كليا بصرها .

ولأنها في أسرة تؤمن بقضاء الله وقدره تعاملت مع حياتها بشكل يسير حيث أول ما تلقت تعليمهـــا في إحدى الحضانات بالقاهرة، ثم التحقت بمدرسة النور للمكفوفين؛ ولأنها تمتلك موهبة الحفظ لم تجد صعوبة في تلقي تعليمها بطريقة برايل ولكي تساير زمنها فقد تعلمت الحاسب الآلي فأتقنـــت التعامـــل معه واستوعبت علومه.

يستمر شريط الذكريات بعرض ذكراها السعيدة حينما كانت تكرم عند ظهور مظاهر نبوغها.. فهي التي – منذ صغرها – حصلت على المركز الأول للمكفوفين في الشهادة الإعدادية ..وهي التي تفوقت كذلك في المرحلة الثانوية.

كما نالت العديد من شهادات التقدير عن مشروعٍ قدمته في معرض انتل للعلوم والهندسة يتناول (محو الأمية للمفوفين)، وكذلك حصلت على أخرى في التنمية البشرية ، ونالت ثالثة من شركة مايكروست العالمية في ICDL، ومنحتها جامعة الشعوب العربية شهادة للاشتراك في (معسكر إرشاد كفيف نحو حياة أفضل)، وأخرى نتيجة لاشتراكها في مؤسسة نساء الجنوب عن سينما المرأة، وهي الآن تعمل في مركز المعلومات بجامعة أُسوان.

استفاقت دعاء السبع على صوت أختها :

" دعاء السبع " فارسة التحدي وقاهرة المستحيل .. لقد وصلنا إلى منزلنا تفضلي يا فارستي بالنزول..

هنا تطلق دعاء ضحكة عالية وتقوم بترديد قولة أختها : فارسة التحدي وقاهرة المستحيل

***

من أعمال الكاتب

- قصة مثل
- أمثالنا الشعبية في الميزان
- التنمر ظاهرة وحلّ
- المشكلة المرورية والحلّ
- قمم مصرية وصلت للعالمية
- بنك المعرفة
- الألغاز النحوية

مجموعات قصصية

- ذئب في طريق عام – مجموعة قصصية
- زلزال ألم– مجموعة قصصية
- القناطر ودورها في التنمية – مجموعة قصصية للأطفال (أطفال)
- لا للتنمر – مجموعة قصصية(أطفال)
- أركان الإسلام – مجموعة قصصية للأطفال
- لغتنا جميلة – مجموعة قصصية(أطفال)
- قهوة ستات ـ مجموعة قصصية

حلم الولد	٧
قهوة ستات	٢١
درس من حواء	٣٥
حكاية أرملة	٤٧
صياح الديك	٦١
فارسة التحدي	٧٥

☆☆☆